الحضارات الفرعية : تفاعل أم صراع

أ.د. مضر خليل عمر

في خضم الحياة اليومية ، وبدون بعد نظر فلسفي تختلط الأوراق و المفاهيم ، و لكن بعد تمحص بسيط يجد المرء أن الأمور أوضح مما كان يتوقع أو يتصور . فالعامة تطلق (وحتى الكثير من المثقفين أو أدعياء الثقافة من المتعلمين) العنان لألسنتهم في ردود أفعال لاعنة غياب العدالة و القيم و سيادة اللاموضوعية و تسف في السب والطعن . فهل هناك علاقة بين هذه المفاهيم ؟ وأيها سبب و أيها نتيجة ؟ وهل تشكل مع بعضها البعض نظاما اجتماعيا معينا ؟ هل تشكل حضارة \ ثقافة من نوع ما ؟ أم تعكس مستوى حضاري معين دون غيره ؟ وهل هي حلقية العلاقة (تنتهي من حيث تبدأ) ؟ و ما طبيعة مسار هذه الحلقية (الرقي بالقيم ، أم تداعيها و تدني معاييرها) ؟ هذا ما يحاول هذا المقال فتح باب حوار ثقافي حوله .

في البدء ، لنتفق جدلا ان الحضارات الانسانية الرئيسة (الزراعية ، الصناعية ، الخدمية) هي من نتاج تفاعل ثلاث عناصر جوهرية هي : الاساس الاقتصادي وتقنياته ، تقنيات المواصلات والاتصالات ، واستراتيجيات الفكر السياسي واسلوب عمله . وان هذه الحضارات \ الثقافات مرت و تمر بمراحل ، وان تقسيم العمل كان و ما يزال العمود الفقري فيها جميعها ، وانه يزداد تنوعا وعمقا مع الزمن . وأن هذه الحضارات \ الثقافات تكمل بعضها البعض ، ولا توجد اي منها بدون تمثيل نسبي للاخريات .

وأيضا لنتفق على ان القيم السائدة هي من نتاج صراع المجاميع الاجتماعية -الاقتصادية – العرقية – الدينية (الطائفية) ضمن الحضارة \ الثقافة الام لتشكل حضارات (ثقافات) فرعية Sub-Culture خاصة بها ، ولهذا فان القيم موجودة في كل زمان و مكان ، و لكل مهنة امتهنها الانسان عبر العصور قيمها الخاصة بها ، ولكل مجموعة اجتماعية (اي كانت طبيعتها) قيمها الذاتية التي تصيغها لتبرر مواقفها وسلوكياتها وتؤطر ثقافتها الاجتماعية . فالثقافة الممارسة هي فكر حضارة منظور . وبالمنظور العملي فان قيم المجموعة تعكس (حضارتها ، وبالمحصلة النهائية نجد ان القيم نسبية بدرجة كبيرة جدا ومتباينة تباين المجاميع العاملة على سطح الارض ومستوياتها الحضارية . وطوال تاريخ البشرية ، كان و مازال الصراع بين مسارين للقيم : مادي و غير مادي ، وما ظهور المصلحين الاجتماعيين عبر التاريخ الا كرد فعل لابتعاد القيم عن (جادة الصواب) وبانحراف نحو المادية (النفعية الطبقية – الاجتماعية – الفردية) . لقد حاولوا تخفيف \ تعطيل الاتجاه المادي مرارا وتكرارا ولكن دون طائل . كان ، وما زال ، التيار المادي هو الاقوى .

من الناحية العلمية فان الموضوعية هي رديف للتقييم الحيادي للشيئ او الحدث ، و بسيادة الأنا – المصالح الذاتية والاجتماعية في التفكير والسلوك ، مؤطرة بالقيم السائدة عند الفرد و\او المجموعة فان الموضوعية قد تلوثت ولم تبق (بدون لون او طعم او رائحة) ، لم تبق موضوعية بل اضحت ذاتية (ملونة) . لقد تلوثت كما هو حال بيئاتنا الطبيعية التي لوثها طمع الانسان وجشعه المقيت . فالسلوك الاناني للانسان (وبدرجات و مستويات متباينة و منوعة) قد لوث البيئتين الطبيعية و الاجتماعية في كل مكان وزمان . لقد حفر الانسان قبره ماديا و معنويا بعنجهية و غرور متبجحا بسيادته على كل شيء الا على نفسه الامارة بالسوء والمنساقة بدون وعي وراء نزوات انية زائلة .

ليس المقصود هنا غياب الموضوعية ، ولكن الواقع يشير الى انها قد أصبحت متنوعة تنوع القيم التي شكلتها و بنيت على اساسها ، فهي نسبية بدرجة كبيرة جدا تفوق تصور واضع النظرية النسبية و مؤيدوها . والمصلحون الاجتماعيون (سياسيو القرن الجديد) في الالفية الثالثة ، ومن اجل اضفاء الشرعية على التنوع اللاموضوعي (للموضوعية) و تخفيف نتائج المنظمات غير الحكومية ، ولتفادي تصادم المصالح خرجوا بمصطلحات : الشفافية ، مؤسسات المجتمع المدني ، و غيرها من تشكيلات تزيد الامر تعقيدا وضبابية . ولست ادري ، من ناحية المنطق الرياضي (العلمي الوحيد حسب علمي لكونه تجريدي) هل تجزئة ال(١٠٠

%) الى (٣ فئات) موضوعي ام توزيعها على (١٠٠) فئة ؟ وهل تداخل الفئات يشكل ال(١٠٠ %) المقصودة ؟ وهل تجميع الاجزاء يشكل (الكل) ويطوره ؟ ام ان (الكل) يحتوي الاجزاء و ينميها ؟ قد يفهم البعض هذا سياسيا ، وليكن ، ولكني أكاديمي اناقش الموضوع (بموضوعية) قدر المستطاع بعيدا عن الميول والاتجاهات والتعصبات الضيقة .

الموضوعية سبيل من سبل تحقيق العدالة ، ولا يرفض عدالة الموضوعية الا مكابر لا يرى الا مصالحه الذاتية فقط . ان فقدان العدالة يعني ضمنيا غياب الموضوعية ، وتنحي الموضوعية عن الظهور راجع الى سيادة قيم و مصالح ذاتية . وهنا يطرح سؤال : بما ان القيم موجودة و متنوعة ، و على اساسها تنوعت الموضوعيات و تعددت ، فهل يمكن القول بوجود عدالات منوعة و متباينة ؟ اذا كان الحال هكذا ، فعدالة من هي ؟ و على حساب من تتحقق ؟ وهل يمكن القول ان تعدد الموضوعيات و تنوعها سبب في انزواء العدالة الحقيقية وانحسارها ؟

من سياق المقولات اعلاه يستخلص ان العلاقة خطية : قيم ثم موضوعية ثم عدالة ثم حضارة . ولكن هل تثمر العدالة قيما جديدة ؟ اذا كان الجواب بالايجاب فالعلاقة حلقية ، وتبدأ دورة جديدة في نظام (القيم – الموضوعية – العدالة – الحضارة – قيم جديدة) . ونقف هنا امام مفترق طرق : ما هو مسار هذا النظام ؟ بمعنى أي نوع واي مستوى من العدالة سيتحقق ؟ فلكل مستوى (أو نوع) قيمه المتولدة عنه والتي تبدأ الدورة الجديدة من عنده . والاهم من كل هذا ، هل عدنا لنناقش من كان اولا : البيضة ام الدجاجة ؟ متناسين الواقع المرير الذي نعيشه ؟ والواقع الذي نحياه بمرارة ، والقيم التي نعتمدها فكرا وسلوكا ومنهجا من نتاج من ؟ وباي مرحلة من مراحل تطور الحضارة الانسانية نحن الان ؟ وما هي درجة نقاوتها (شفافية التلوث) ؟ اسئلة تحير من لا يريد ان يشتغل بعيوب الاخرين ، ولديه متسع من الوقت (جامعي متقاعد) للكلام و الكتابة لمن يقرأ ليشغل نفسه بالمفيد .

من الناحية التربوية ، لننظر الى الوراء قليلا ، عسى ان نستخلص العبر . ما هي القيم التي كانت سائدة في مجال التربية والتعليم في العراق خلال عقود خلت : الخمسينات ، الستينات ، السبعينات ، الثمانينات و التسعينات من القرن الماضي ؟ (لنترك امر 2003 وما بعدها حاليا) . لماذا تغيرت هذه القيم وكيف ؟ هل كان المنهج التعليمي وراء ذلك ؟ ام عملية تاهيل المربي (أداة تنفيذ المنهج) ؟ ام كان للتغيرات الاقتصادية – السياسية الدور الحاسم في ذلك ؟ ام جميعها ؟ وهل ما حدث في العراق حصري به ؟ ام انها موجة مقصودة طفحت بالمنطقة والعالم ؟ والى اين تتجه كرة الثلج المتدحرجة (سنو بول) (تكبر مع كل دورة تكملها) هذه ؟ هل يمكن تصنيف العوامل المؤثرة الى داخلية و خارجية (ذاتية و موضوعية) ؟ واذا امكن ذلك ، فهل نكون موضوعيين في تقييم العوامل الداخلية (ذاتية وموضوعية) ؟ وهل سنكون جريئين ونصارح انفسنا بما لها وما عليها بكل امانة وصدق واخلاص ؟ ام أن المحاباة أصبحت طبعا وليس صفة مكتسبة ؟

لا يحدث التغيير فجأة ، ولكنه يتحرك ، وفي الغالب ، باتجاه محدد ولكن ليس بشكل مباشر ، وعندما يحدث يصعب العود فيه ، فتصبح المسيرة في ذلك الاتجاه حتمية (او هكذا يوحى بها) . وبافتراض توافر ارادة التغيير فلابد وان يعتمد سبيلين اساسيين لتحقيق ذلك : الذات (لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) ، و التربية والتعليم كوسيلة لبناء جيل المستقبل . فهل احساسنا بلاعدالة الاوضاع ولا موضوعية القرارات والسلوكيات والمناهج السائدة حاليا وصل الى درجة تجبرنا لنعيد النظر في قيمنا ؟ أم ما زلنا ننتظر عصا سحرية تعيد الماضي التليد ؟ او تفيقنا من سباتنا وتنعش قيمنا و آمالنا ؟ انه هو العليم الخبير ، وهو على كل شيء قدير ، وهو أرحم الراحمين ، وهو الحق العدل المبين ذو القوة المتين .

ولكي يكون للكلام فائدة ، من الضروري تلخيص الافكار وصياغتها على شكل نقاط ، تشكل محاور للحوار والنقاش و الجدل ، ولكن شرط ان لا يؤدي الخلاف في الرأي الى حمل السلاح ، فالفكر النير ارقى من أي سلاح صنعه الانسان ليقتل اخيه الانسان . والفكر الانساني يحيي ولا يقتل ، ينعش ولا يهمش ، ينتفض ولا يوئد ، انه تفاعلي بفطرته ، متفائل بطبيعته .

١ - قيم السماء (مثالية) لانها صالحة لكل زمان و مكان ، و مغرقة في المثالية لغرقنا نحن في دوامة الماديات الجافة ، لذا ابتعدنا عنها كثيرا .
٢ - حوار الحضارات ، واقع فرض نفسه ، ليس على مستوى العالم (العولمة) ، بل حتى على المستوى المحلي . فالتنوع القيمي – الموضوعي – الحضاري موجود على جميع المستويات و المقاييس و الاصعدة . لذا علينا ان نحترم قيم الاخرين كي يحترموا قيمنا و مبادئنا . ولنكون موضوعيين معهم ، عسى ان يكونوا هكذا معنا .
٣ - غلق النوافذ يؤدي الى (التعفن) ، وفتحها على مصراعيها يؤدي الى دخول كل ما هو غير مرغوب فيه ، لنبحث عن (واقيات – فلتر) تصفي المدخلات و تستر المخرجات كي نتنفس الصعداء حينئذ .
٤ - أصدروا تشريعات حماية البيئة الطبيعية من التلوث ، ونسوا تلوث قيم المجتمع ، (ان لم يسهموا في تلويثها عن عمد) ، طالبوا باستدامة التنمية ، ونسوا استدامة القيم و العدالة . لنطالب بها ، ففيها حياتنا و كرامتنا ، فيها حضارتنا الانسانية الحقيقية .
٥ - لنبدأ بالتغيير الايجابي من الجامعة ، فهي مرآة مستقبل الامة . انها تجمعنا بكل طوائفنا و قيمنا و سلوكياتنا . و لكي تستطيع صهرنا في بوتقتها ، لابد من قيم اكاديمية وضوابط مهنية صارمة تطبق على الجميع . حينها تسمو قيم العلم والموضوعية والعدالة ، و نتوحد سلوكا و منهجا وان اختلفت أفكارنا و مذاهبنا و قومياتنا .
٦ - تفاعل الحضارات (الرئيسة و الفرعية) ضرورة انسانية للتقدم و الرقي ، اما صراعها فيعني العزم على المزيد من القهر و التخلف و الظلم ، ونهاية الانسانية ، نهاية العالم .
٧ - القيم مرآة تعكس مستوى الحضارة \ الثقافة و درجة موضوعيتها و نوع العدالة الكامنة فيها ، فلنركز على القيم الحميدة لانها سبب و هي في الوقت نفسه النتيجة المرجوة .

والله ولي التوفيق .